القيامية المستأنفة، مقاربة راهنة في جدليات الثورة العربية والنهضة والاحتواء

أ. محمود حيدر[١]

سياقات الثقافة السياسية الراهنة:

لو كان لنا من رؤية إجماليّة لمحرّكات الثقافة السياسية الراهنة على امتداد العالمين العربي والإسلامي، لوجدنا وضوحاً بيّناً في مسارات الاستقطاب واتّجاهاتها. نقول هذا على الرغم ممّا يشوب الصورة العامة من تداخلات وتباينات تبدو على الجملة في غاية التعقيد. لكن، أياً كان الأمر، فثمّة من التحوّلات في عالمنا اليوم، ما يشهد على حضور ثلاثة سياقات ثقافية يسابق بعضها بعضاً، وكلّ منها محمول على الأخذ بما يمكّنه من صناعة حقائق الزمن الجديد.

الأول: سياق الاستتباع؛ وهو يقوم على التماهي مع مسالك القيم الغربية، وعلى الرضى بتوقيعات الموجة النيوليبرالية المتمادية، والقبول بمشروعيّة الدولة اليهودية؛ كطور أخير من أطوار الاستيلاء على فلسطين.

الثاني: سياق المقاومة فيما ظهر من تجاربها المعاصرة؛ ولا سيّما لجهة النظر إليها معرفيّاً بوصفها منظومة نهضويّة أخلاقيّة شاملة، ترمي إلى تحرير الإنسان والأرض، وإلى تحقيق السيادة والكرامة الوطنية.

(١) باحث في الفلسفة السياسية، ورئيس مركز دلتا للأبحاث المعمّقة.

الثالث: سياق التغيير تحت ظلّ حالة رمادية تغشى الوضع العربي الراهن، وتجعله أسير تجاذبات لا تقدر معها سائر القوى الفاعلة على مستقرّ واضح لها، وهو سياق فكري ثقافي يعبّر عن نفسه بقول سياسي عامّ قوامه تغيير أنظمة الحكم. ومن مفارقات هذا السياق أنّه يبدو خُلواً من الهندسات الفكرية التي كنّا أَلفناها في الثورات الوطنية والاشتراكية والدينية المُنصرمة. وأنّه فَي الآن عينه يفتقد إلى استراتيجيات واضحة المعالم، ترتّبها في الأحوال الاعتيادية رؤى إيديولوجية؛ توضّح هويّات السلطة، أو تُفصح عن التصوّرات المُفتَرَضة لطبيعة نظام الدولة الجديدة.

وعلى الجملة لا تبدو التحوّلات التي تعصف بمجتمعاتنا العربيّة هذه الأيام، سوى أنّها تجلٍّ صريح لاحتدام هذا المثلث من السياقات الثقافية. وسيظهر لنا بما لا يقبل الريب، أنّ ما كشفت عنه تلك التحوّلات، يُفضي على وجه الإجمال إلى نشوء وعي عامّ قوامه مغادرة همّين تاريخيَّين متلازمين هما: همّ الهيمنة الاستعمارية، وهمّ الاستبداد الداخلي.

غير أنّ الوجه الأشدّ خطراً في المشهد، هو ما يُترجمه المسعى الذي تتولاه الموجة الفكرية النيوليبرالية؛ فيما نسمّيه بـ «**الحرب على المعنى**». وهي الحرب التي تستهدف اغتيال الولاء الوطني وتفكيك القيم الدينية والأخلاقية؛ تحقيقاً للهيمنة الشاملة.

وإذا كانت الغاية المنظورة من الاجتياح المعرفي، هي صناعة وعي قابل للإذعان، فالغاية القصوى منه، تتمثّل في جعل الجمهور المُستهدف يمتنع بإرادته عن التساؤل والنقد والاعتراض. ثمّ ليتحصَّل من استهداف كهذا تحوّل الجمهور المهيمَن عليه إلى وضعية يكون فيها غافلاً عمّا هو فيه. بحيث تنشأ لديه قناعات تُفضي به إلى التسليم، والإصغاء، والخضوع الطوعي...

محاور الحرب على المعنى:

في الوضعيّة العربيّة والإسلاميّة التي أصيبت بجراح بالغة جرّاء هذا

الاستهداف، تمضي وقائع «**الحرب على المعنى**» بأشكال متنوّعة؛ حيث تتوزّع مفاعيلها على ثلاثة محاور متزامنة:

المحور الأوّل: مصادرةُ أيّ احتمال للتغيير؛ من شأنه أن يضع شعوب المنطقة العربية والإسلامية على صراط السيادة الكاملة. ذلك ما ظهرت مؤشّراته بوضوح في المجتمعات التي شهدت ثورات شعبية عارمة، مثل: مصر، وتونس، واليمن، والبحرين، وليبيا.

المحور الثاني: استئناف الإدارة الديمقراطية الأميركية العمل على إعادة تفعيل فلسفة التفكيك، أو ما يُعرف في مجال الفكر السياسي باستراتيجيات الفوضى الخلاّقة؛ التي كان بدأها المحافظون الأميركيّون الجُدد قبل نحو عقدين من الزمن.

إنّ مثل هذه الفلسفة، تُستَأنف اليوم على نشآت وحروب منوّعة، من مظاهرها البيّنة، أنّها تستبعد سياسات الاحتلال والغزو المباشر أو تؤجّلها، وتأخذ بدلاً من ذلك بضروب أخرى من الاحتواء، نظير: إثارة المنازعات الطائفية والمذهبية، والدفع بالحروب الأهلية، وتفجير الوحدة الوطنيّة.

ولعلّ ما نلاحظه اليوم في أكثر من ميدان عربي، يشكّل – وإن بتقنيات وشروط متفاوتة – أمثلة صارخة على ذلك النوع الذي اصطُلح على تسميته بـ «**الفوضى الخلاّقة**».

وأمّا المحور الثالث: فيقصد الساعون إليه إلى استنزاف ثقافة المعنى؛ وهو ما يجد مثاله المتمادي في تبهيت البُعد المُتسامي لفكرة المقاومة. فسنرى بعد الانتصارات التي تحقّقت في لبنان عام ٢٠٠٦م، وفي فلسطين عام ٢٠٠٩م كيف تضاعفت وتائر التطويق والاستنزاف حتى بلغت الذروة؛ حيث بدا ذلك جليّاً في النموذج المدوّي الذي أظهرته الحملات الإعلامية لمصادرة معنى الانتصار، مثلما برز بوضوح من خلال إعادة الاعتبار لخطاب ثقافي معاكس قِوامه: إجراء تحويلات عميقة في الوعي العربي والإسلامي يصل مداه إلى «**عقلنة**» الأطروحة الإسرائيلية، بما يجعلها جزءاً من الحالة الحضارية، والدينية، والسياسية لشعوب المنطقة.

ولعلّ ما نشهده من تداعيات، إن لجهة تعميم القيم الليبرالية؛ عبر الأخذ بثقافة المجتمع المفتوح، أو لناحية تفعيل عمليّات التطبيع وتعميم الظاهرة الإسرائيلية، كلّ ذلك إنّما يُظهر المقاصد الحقيقيّة لما يُسمّى بـ «**الثورات الإصلاحية الملوّنة**»؛ وهي الثورات التي غالباً ما سُوِّقَت تحت عناوين إغوائية ذات أبعاد ومضامين نبيلة، مثل: الحريّة، والديمقراطية، وحقوق الإنسان. ولمّا كانت عناوين كهذه تنطوي على قابليّة التوظيف والاستخدام، فإنّ المآل الجوهري لإجراءات التحويل هو إسباغ الشرعيّة على الوجود الإسرائيلي، بحيث لا ينتهي التغيير المؤمّل إلى وضع المجتمعات العربية والإسلامية، ومراكز القرار فيها، في مواجهة تاريخية مع السيطرة الثقافية الاستعمارية، وبالتالي مع الدولة اليهودية في فلسطين.

إذا كانت هذه هي السِمات الإجماليّة لصورة الاحتدام الحاصل اليوم، فإنّ الدلالة المستخلصة من حراك الساحات العربية هو الإنباء عن زمنٍ استثنائي وجديدٍ من المواجهات.

أمّا الاستثنائية والجدة فتعودان إلى أنّه زمن مركّب وانتقالي، وإلى أنّ جلاء صورته النهائية أمرٌ متعلّق بالحصاد الإجمالي للاحتدام الجاري بين مكوّناته وقواه. ومثلما يحمل زمن كهذا وعوداً بآمال كبرى، فهو ينطوي في الآن عينه، على روح متشائمة قد تحجب ثقافة الإحياء الحضاري لدى نخب الأمّة وجماهيرها.

بهذه المعبّرات يكشف هذا الزمن عن منفسحٍ تاريخي تتساوى فيه رهانات النهضة مع هواجس النكوص والتأخّر، حيث لم تعد النهضة مجرّد خطبة افتراضية شكّلت على مدى أحقاب طويلة مادّة مغرية لمساجلات خاوية من أيّ أثر. ومن هذا النحو فإنّ المزيّة الأبرز لثورة الشارع العربي تكمن في تنبيه الفكر العربي المثقل بالتشاؤم؛ إلى وجود إضاءات تمكّنه من إعادة صياغة بيان التقدّم؛ على قاعدة التفاؤل. ومثل هذا التنبيه سيكون له أثر حاسم في إمداد التحيّزات والولاءات الناشئة بأمل الخروج من الخوف والإحباط وعقدة التأخّر.

ضفّتا الحياد والتحيّز:

من البيّنات التي تفصح عنها التحوّلات الجارية، قابلية البيئة العربية لإنجاز ولادات فكرية وسياسية وثقافية غير مسبوقة بالمعايير التاريخية. على أنّ البيّنة الأكثر حضوراً في حقل التداول، هي ما يعكسه التساؤل عن القيم البديلة غداة تهتُّك حزمة وازنة من المفاهيم التي شكّلت - سحابة قرن كامل -، قواعد معرفية لتفسير حوادث المنطقة وتطوّراتها الكبرى وفهمها.

هذا الصدع الذي ضرب البنية المفاهيمية التقليدية لنخب هذه المنطقة، لم يكن وليد اللحظة الراهنة، وإنّما هو حصيلة سلسلة من الاحتقانات المتراكمة التي تتساوق فيها حزمة من الجاذبيات، لعلّ أكثرها مدعاة للنقاش؛ ما تعلّق منها بالهويات الضائعة والولاءات الممزقة. وإلى هذه السلسلة يجيء المنعطف الذي شهده النظام العالمي منذ نهاية الحرب الباردة لينقل نظام التوازن إلى طور آخر، ربما كانت الأحادية الممزوجة بالخواء من أظهر علاماته الدالّة.

أمّا ما يشهده عالم اليوم فهو نسقٌ موسوم بطابع انتقالي، يكاد لا ينفكّ عن خلوّه من أيّة منظومة صريحة تقاس على أساسها عمليّات التدافع الفكري، فضلاً عن ضبابية الأُطُر والأشكال الواضحة المتعلّقة بالأمن القومي وسيادات الدول...

فمع انبساط صورة العالم على هذا النحو؛ من انعدام اليقين، سيكون لعالمنا العربي والإسلامي نصيب وافر من آثارها وتداعياتها، حيث جرى النظر والتعامل مع الجغرافيا الثقافية العربية كميدان خصيب للاختبارات المدوّية. ولسوف تفصح الميادين المسكونة بالاضطراب عمّا يمكن وصفه بـ«**مبادرات ملء الفراغ**»، التي اندفعت إليها مؤخّراً نُخَب، وتيارات، وبيئات عربية وإسلامية لا حصر لهويّاتها وولاءاتها الإيديولوجية.

وعلى هذا النحو، فإنّ السمة اللافتة لـ«**مبادرات ملء الفراغ**» المشار إليها، انضواء الفاعلين فيها داخل عمليّات استقطابات لا محلّ فيها للحياد. والبيّن من الوقائع الجارية التي تشهدها حركة الشارع العربي، هو انخراط كُتَل ثقافية

وسياسية واسعة نسبياً في مراجعة محمولات إيديولوجية وقناعات فكرية ومعرفية كانت في ما مضى سبباً لعزوفها الطوعي أو الاضطراري عن العمل السياسي. لكن ما هو أكثر استدعاءً للتأمّل، أنّ مثل هذه المراجعة لم تقتصر على كتُلٍ بعينها، بل هي ستتحوّل موضوعياً إلى طاقة جاذبة لملايين من الناس؛ وجدت فرصتها العُظمى لاستعادة هويّاتها المسلوبة. فإذا جاز لنا توصيف مثل هذا التحوّل المعرفي لألفينا ظاهرة تحيّز فريدة من جنسها، وقد حلّت على ثقافتنا السياسية، ودفعت بها إلى حدودها القصوى من الأفعال والشعارات.

والمميّز في تلك الظاهرة أنّ السياقات الثقافية الثلاثة التي مرّ ذكرها في مُستهل مقالتنا، تقاطعت حول الإعلان عن الولاء لأمر جلل. وسيكون لنا ممّا ترسله البيئات الفكرية والسياسية المختلفة؛ من مواقف ما يمنح المشروعية لهذا العنوان الكبير. وسيتبيّن لنا ما هو أبعد أثراً من ذلك، حين تطلّ علينا تظاهرات الولاء وهي مكتظّة بإنشاءات إيديولوجية تبرّرها، وتسبغ عليها شرعيّة الحضور.

فلو كان لنا من معاينة إجمالية للولاءات التي ظهّرتها الثورات العربية، للاحظنا حيويّاتها الاستثنائية، ولا سيّما لجهة توافر المقدّمات الضرورية لإرهاصات نهضوية أخذت تخطّ مجراها نحو طور تاريخي، ليس بالضرورة لكي يُعرَف أن نعرف مآلاته النهائية منذ الآن.

هكذا على الرغم ممّا تمتلئ به الحقبة الحاضرة؛ من عمليات احتواء واسعة النطاق من طرف ما يسمّى عادة بـ «**الثورة المضادّة**»، فقد دلّت الحيويّات السياسية المستأنفة على أصالة الاحتمال الثوري؛ مؤسّساً للعمليّة النهضويّة الشاملة.

يقظة المثقّف المتحيّز:

أحد أبرز العناوين الكبرى التي ارتفعت في سماء التحوّلات الأخيرة، هو خبر عودة سؤال النهضة إلى حرارته الأصليّة.

الأهم من هذا، أنّ مثل هذه «**العودة**» تنطوي هذه المرّة على مفارقة بيّنة.

فهي ليست مجرّد استعادة لأفكار وآمال سبق تداولها أو الاستئناس إليها، على سبيل مجاراة سُنن التطوّر. وإنّما هي عودة تكتظّ بوعود تاريخية لا نظير لها في العصر الحديث.

لا يتعلّق الأمر هنا، بالكلام على «**لعبة حظ تاريخية**» طالما جرى استحضارها في معرض المُساءلات عن العلل التي حالت دون قدرة العرب على الإمساك بمفاتيح الاستقلال والتقدُّم. حتى لقد غلب الظنّ لدى جمع غفير من المفكّرين العرب المعاصرين، أنّ الضالّة تكمن في عيب تكويني أصاب العقل العربي، ولا سبيل إلى شفاء داء لا شفاء منه.

ربما يكون علينا هنا، واجب التفاؤل حيال الكلام على رجوع مقولة النهضة، ولو من باب «**الظنّ المعاكس**». ذلك أنّنا سنكون مسوقين إلى التعامل مع المقولة بوصفها «**رجعة ميمونة مسدّدة بالإرادة ومؤيدة بجرعة وافية من العقلانية، في الوقت عينه**». ومع أنّ تفاؤلاً كهذا لا ينفكّ عن كونه حالة جنينيّة تترجّح بين العدم والوجود، ولكنّ حجّته تنطوي على جاذبية استثنائية في عالم بلغت أزماته السياسية والمجتمعية والأخلاقية درجاتها الفائضة. وإذا كان من بديهيات الفلسفة السياسية الحديث عن إمكان استعادة قضايا تاريخية كلّيّة للشعوب العربية، مثل: الهوية، والولاء، والانتماء، والسيادة، في بدايات القرن الحادي والعشرين، فالثابت أنّ هذه القضايا ستؤلّف على الجملة، متّكآت السيرورة النهضوية، ما يجعل الكلام على عودة المثقّف العربي المتحيّز لتلك السيرورة، كلاماً مطابقاً للواقع بدرجة الامتياز.

تناقض بين أُطروحتين:

ربما كان السؤال الذي يُنتج على نصاب جديد أكثر عمقاً في الثقافة السياسية العربية؛ هو الآتي: من أيّ محلّ يبتدئ الفعل النهضوي المفترض... من عالم النظرية التي قيل إنّها أصل الإشكال في أزمة الفكر العربي الإسلامي الحديث، أم في حقول المواجهة؟

ربما لا يحتاج جواب السؤال إلى الدخول مجدّداً في حمّى المجادلات التي

كنّا ألِفناها سحابة أجيال كاملة، خصوصاً إذا استحضرنا تلك اللاّزمة التي أخذ بها اليسار العربي حول الارتباط الشرطي بين الحركة الثورية المسبوقة بنظرية ثورية ناجزة. ففي الميادين الممتلئة بشغف البحث عن أطروحة إحيائية عربية، ما يشير إلى إمكان تشكيل الغايات على ما يجوز تسميته بخطّ الصواب التاريخي.

إذا كانت رحلة التحوّلات قد بدأت فعلاً، أقلّه في الجانب المتعلّق منها بإسقاط أنظمة وتفكيك أحلاف، واستبدال مفاهيم، فإنّ تأصيل مسارات الاحتدام، على قاعدة التناقض التكويني مع دولة إسرائيل، يعدُّ بحقّ المدخل الواقعي لتتّخذ الأطروحة النهضوية قوامها الأصلي. والجائز أن نمضي أبعد من ذلك، لنرى حقيقة أساسية يتوقّف على إدراكها جدوى أيّ مشروع للإحياء الحضاري، عنينا بها التناقض الجوهري بين وجود إسرائيل كسليل لإمبريالية ما بعد الحداثة، وأي مسار نهضوي إحيائي لشعوب المنطقة.

هناك إذاً، أطروحتان تؤلّفان معاً وحدة قياس معرفية لفهم جدلية التقدّم والتأخّر التي تحكم الزمن المعاصر لبلادنا: حقيقة النهضة، والغاية من وجود إسرائيل؛ كنقيضين متوازيين لا يقبلان اللقاء والمصالحة.

ربما لم تملك أطروحة الأمن الثقافي في التاريخ العربي – الإسلامي المعاصر ما كان يجعلها في المنصرم البعيد نسبياً، أطروحة منجزة. إذ مع صعود حركة الحداثة في الغرب من القرن السابع عشر إلى بداية القرن العشرين، ظهرت أسئلة الاستنهاض في بلادنا؛ لتشهد مع تلك الحركة نموّاً موازياً.

ثمّة من أسئلة النخب العربية ما انعقد على سيرة الحداثة، سعياً إلى الأخذ بأنوارها، وتمثُّل أحوالها وحوادثها... ومنها ما انعقد على حذر وتريُّبٍ وشكّ حيال طوفانها الإمبريالي.

والأسئلة في الحالين جرت على نشأة سالبة؛ ففي الأولى كانت انسحاراً بما جاء به الغرب إلينا، فيما نحن في ظلامة الاستبداد. وفي الثانية ستشهد ائتلافاً لقوى راحت تختبر بياناتها الإيديولوجية وشعاراتها الثورية؛ في حقل المواجهة لواقع حداثيّ إمبريالي أخذ يتمدّد؛ لتوطين قِيمِهِ بقوّة الحديد والنار.

فالحالتان ستؤسّسان منذ ذلك الوقت لأزمنة ثقافية، غالباً ما كان يُعاد إنتاجها على نصاب الأسئلة السالبة نفسها، كلّما عصفت ريح الصدمات المتعاقبة بين الإسلام والغرب. وبدا لو أنّ سؤال الإحياء الحضاري، لا يُستعاد إلا لتردَّ الحملة الحداثية الإمبريالية على أعقابها. غير أنّ حاصل الاحتدام ظلّ على الدوام، ضمن سياقه الاعتيادي؛ فجدالية التقدّم والتأخّر أخذت سبيلها إلى الرسوخ، فيما أسئلة النهضة صارت أشبه بأوعية مثقوبة لا تصلح للمراكمة والتوالد...

صورة النهضوية العربية في القرن الحادي والعشرين:

تبدو صورة النهضويّة العربيّة في بدايات القرن الحادي والعشرين كأنّها تستعيد نشأتها الأولى، ولكنّها اليوم في طور آخر. وها هي تستأنف رحلتها بوتيرة أشدّ عمقاً، بعد أكثر من عقد على ظهور الأطروحة الإسرائيلية في منتصف القرن العشرين المنصرم. إذ مع هذا الطور سينشأ زمن تاريخي جديد لم يعد معه سؤال الاستنهاض الحضاري على نسقه التقليدي؛ أيّ على نحو ما عرَّفه نهضويو آخر القرن التاسع عشر من العرب والمسلمين.

إنّ كلّ شيء سيعود مع التوليد المتمادي للأطروحة الإسرائيلية إلى حقل الاحتدام. وسيصير الكلام على الثقافي، والمعرفي، والفكري، والتنموي، والإحيائي كلاماً غير ذي وزن، ما دام يتحرّك خارج المواجهات بأشكالها كافّة.

الظاهرة الإسرائيليّة وتجسيد إمبرياليّة الحداثة:

ابتداءً من الظاهرة الإسرائيلية، سوف تُختزل كلّ الأسئلة المتعلّقة بالنهضة ضمن تساؤل إجمالي عمّا إذا كان بالإمكان، انطلاقاً من فلسفة اختصام الوجود مع دولة الاستيطان الصهيوني...، استيلاد مسار حضاري، عربي إسلامي، يصدّ الهيمنة الاستعمارية بنسختها الليبرالية الجديدة ويتوازن معها.

لقد ظلّ التساؤل سارياً بين النخب العربية من دون أن يتعيّن محلّ الإشكال

الفعلي. فيما أكّدت الوقائع التاريخية المتعاقبة حقيقة كون الظاهرة الإسرائيلية هي الظاهرة الأكثر تعبيراً عن إمبرياليّة الحداثة وفعاليّاتها الثقافيّة والفكريّة والسياسيّة في بلادنا.

ما نشهده الآن، طور آخر، من الحِرَاك حول وجود إسرائيل؛ إذ بقدر ما يتّسم هذا الطور بالحدّ الأعلى من العداء لهذا الوجود الاستيطاني، فإنّه ينبسط أيضاً على فرضية الالتقاء والمصالحة معها. وهذه الفرضية تنطرح اليوم على أكثر من نصاب: أكثرها حيوية وخطورة ما يجري على ما يسمّى بـ «**خطوط السلام المزعومة**»؛ حيث تستأنف هذه الخطوط حركتها المرسومة بإتقان، بدءاً من إنهاء العداء؛ عبوراً إلى نهاية الخصومة، ثمّ ليصَّاعد إلى ضربٍ من «**حسن جوار**»، يُفترض أن تتآلف الأطروحة الإسرائيلية فيه مع العرب والمسلمين؛ ضمن ما يسمّى بالجغرافيا الاستراتيجية الكبرى للشرق الأوسط الجديد...

مؤشّرات المواجهة المستقبليّة:

ربما علينا الآن التنبّه إلى جملة حقائق أظهرتها المواجهات في خلال العقدين الماضيين، وهي الآتية:

- إخفاقات متلاحقة في احتواء القضيّة الفلسطينية أو تصفيتها، على المستويين العسكري والسياسي.
- الهزيمة الأولى لجيش الاحتلال الإسرائيلي في ربيع العام ٢٠٠٠م.
- الهزيمة الثانية في حرب تموز ٢٠٠٦م.
- الهزيمة الثالثة؛ بالإخفاق في إعادة احتلال غزّة عام ٢٠٠٩م.
- بداية زمن جديد من الصراع العربي – الإسرائيلي؛ من علاماته الكبرى إمكان إلحاق الهزائم بإسرائيل، بعد إيقاعها في هزيمتين محقّقتين بالفعل، وهزائم قيد الوقوع على جبهات أخرى.

ذلك كلّه سوف يُرسي مقدّمات ضرورية لقيامة فكرة النهضة على نشأة الاقتدار.

وبعد... ثمّة من يرى استعادة روح المقاومة ومفارقة أسباب العنف الأهلي، وتعميم مجالات التفاعل والتواصل بين المجتمعين السياسي والمدني، وإطلاق المبادرات الحرّة على مبدأ العقلانية والخيرية، ووحدة الوطن والأمّة، كلّها من الخطوات المؤسِّسة لمقاومة أيّ ضرب من ضروب الغزو والتطبيع، وهي السبيل الذي يؤسِّس لقيام كتلة تاريخية تقاوم منطق الهزيمة وتداعياتها في الفضاء العربي الإسلامي بأجمعه.